الشاعران المتشابهان (*)

الشابي (التونسي) والنجاني (السوداني)

للأستاذ أبي القاسم محمد بدري

الشابي :

انحدر أبو القاسم الشابي من أسرة عريقة ذات مجد ودين ، قبيلته الشابية ، وبلدته توزر عاصمة الواحات التونسية . شدا طرفا من علوم الشريعة الإسلامية كالفقه والتوحيد والأصول ، وأخذ نصيباً من الثقافة العربية كالنحو والصرف والبيان والأدب . درس ذلك على الأساليب العتيقة ، من متن وشرح وحاشية . وفاز بشهادة « التطويع » في جامع الزيتونة ثم التحق بمدرسة الحقوق ، وحصل على إجازة الحقوق . ثم أصيب بداء الصدر الذي صده عن إتمام دراسته ؛ فانقطع عن العلم والتفت إلى معالجة المرض العضال الذي ظل معه يناديه ويراوحه ، حتى اختزم حياته في ربيع شبابه .

النجاني :

أما النجاني يوسف بشير فهو شاب ينتمي إلى أسرة من كرائم الأسر السودانية سليلة أعرق القبائل العربية . تلقى تعليمه في المعهد العلمي بأم درمان . فاستقى من نبعه الصافي علماً واسعاً وأدباً رائعاً ، وأعانه ذوق مرهف وذكاء وقاد على فهم الحقائق العلمية ، وتمييز الدقائق البيانية والاشتغال بها مع العلوم الدينية في زمن سادت معهده فيه أساليب التعليم العتيقة التي لم تعن بفن الأدب عنايتها بعلوم الدين . وأصيب أيضاً بداء الصدر العضال الذي غالبه حقبة من الزمن ، ثم صرعه المرض وهو في سن باكرة نضج فيها إنتاجه ، وبلغ ذروة الإتقان وموضع الافتنان . وافاه الأجل المحتوم وهو ناضر الصبا ريان الشباب في مقتبل حياته الأدبية ، ومفتتح عبقريته الشعرية ؛ وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إليه ، لأعواز العوض عنه وعظم الفجيعة فيه .

وجه الشبه في حياتهما :

نشأ في بيئة دينية محافظة ونهلا من فيض الثقافة العربية الإسلامية العربية ، ثم تأثرا بالأدب الغربي في قراءة الكتب المترجمة لأن كليهما لم يدرس لغة أجنبية وقد اتفق أن نظرتهما للحياة كانت متقاربة التقارب كله ؛ وليس هذا يحدث إلا في النادر القليل . رغب كلاهما عن الحياة العابثة الماجنة ، ونزعا نزعة التصوف والزهد وسخطا على عيشهما ، وتبرما بقومهما ، وتشاءما من حياتهما تشاؤماً ، مبعثه حب الإصلاح وانتقاد ما يريان من أحوال وأعمال . وأودعا كل ذلك في شعر رائع زاخر يجيش ثورة واضطراما على التقاليد ، ويفيض ناقماً على المنازعات والحزبيات ، ثم يتدفق عذوبة ويتفجر إخلاصاً وحماسة في معالجة المشكلات وتقوية الأواصر والصلات بين المواطنين المخلصين وأبناء العروبة الغر الميامين .

وتشابها أيضاً في العلة فقد اصطلح عليهما داء الصدر الذي عاق نموهما الجسمي وتقدمهما العقلي في العمل والتفكير ؛ فاتا في عنفوان الشباب عند ما تفتقت زهرتاهما عن أكمامهما عبقتين فواحتين بأريج النضج والاكتمال ، وشذى الإنتاج والإبداع .

ومن غريب مصادفة القدر أن فقدهما حدث في زمنين متقاربين . مات الفقيدان طيب الله ثراهما وأخلد ذكراهما — بعد أن اقتطفا من متاع الحياة خمسة وعشرين ربيعاً لم ينعما فيها بأطايب العيش ولذائذ الحياة ، ولم يستكملا فيها مراحل تطورهما في النظم والتصوير ، وابتكار النماذج العالية الخالدة في الأدب الشرقي والشعر العربي المستقى من الفن الغربي والمذهب الواقعي .

المشابهة في طريقة النظم والتعبير :

من الواضح أن الشعر عمل فني يقوم على أشياء لا على شيء واحد . فلا بد له من الصورة الفنية والموسيقى الجميلة والخيال البارع . ومعلوم أن المقصود بالمشابهة في النظم والتصوير هو الشبه بينهما في لغة الشعر .

فما هي لغة الشعر إذن ؟ هي أداة يستخدمها الشاعر في فنه فواحيها الألفاظ والكلمات التي لا تخرج كثيراً عما يتحدث به

(*) عاش أبو القاسم الشابي من عام ١٩٠٩ إلى ١٩٣٤ م ؛ وعاش النجاني يوسف بشير من سنة ١٩١٢ إلى ١٩٣٧ م

الناس ويكتبونه ويتخاطبون به . وبهذه الأداة المألوفة يستطيع الشاعر أن يخرج فناً يفوق جميع الفنون .

وبما أن الشعر الصحيح ينبعث دائماً من إحساس قوى ممتاز ، فالشاعر ملزم حينئذ أن يتخذ للتعبير عنه لغة خاصة متجانسة مع هذا الإحساس . فليس المعنى وحده هو الذى يؤثر فى النفوس ؛ بل إن الألفاظ — التى هى منه بمثابة الجسد من الروح لها تأثيرها الخاص . فى الشعر الرصين ينبغى للفظ :

أولا : أن يتجانس مع المعنى فيكون رقيقاً فى مواضع الرقة ، قوياً عنيفاً فى مواضع العنف والقوة .

ثانياً : أن يكون اللفظ على قدر المعنى ، فلا يكون هناك حشو ولا زيادة ، ولا قصور فى الدلالة على المعنى .

إذا أنعمنا النظر فى شعر هذين الشاعرين نجد المشابهة قوية أخاذة ذات سحر وجلال ينفذان إلى شغاف القلوب ويؤثران فى طوايا النفوس . قال الشابى يصف الجنة الضائعة : —

كم من عهود عذبة فى عدوة الوادى النضير
كانت أرق من النسيم ومن أغاريد الطيور
وألذ من سحر الصبا فى بسمة الطفل الغرير
أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الوحى الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير

فى الأبيات المتقدمات يسكب الشاعر ذوب نفسه وعصارة فكره ؛ وهو يتشوف إلى العهود العذبة التى قضاها فى الوادى النضير ؛ ويتحسر على ضياعها ، لأنها كانت تسمو على كل لذة من لذائذ الوجود وتفوق كل متاع من متع الحياة . ألم يقل إنها أرق من النسيم ومن أغاريد الطيور ، وألذ وأمتع للنفس من سحر الصبا وبسمة الطفل الغرير . وهل يوجد فى الوجود شىء يعدل هاتين اللذتين فى العذوبة والطهارة والوداعة والجمال .

ألا تسمع إلى رنين جرس العبارات وحلاوة الألفاظ والتعبيرات فى الكلمات التالية . — سحر الصبا — بسمة الطفل — طهارة الموج — وداعة العصفور . إن الألفاظ فيها تجانس للمعنى وفيها رقة تسيل على القرطاس وتتفجر عن أنبل عاطفة وإحساس . ثم إن اللفظ على قدر المعنى فلا حشو ولا زيادة مع اقتدار فيه على تأدية المعنى أداء بليغاً مؤثراً .

ولنستمع إلى صاحبه التجانى يوسف بشير يناجى النيل فى وقفة له شاعرية سمت بروحه إلى أعلى عليين حيث فاضت على السامعين من نبعها الصافى هذه الأبيات الخالدات فى قصيدته « فى محراب النيل » . —

أنت يانيل ياسليل الفراديس نبيل موفق فى مسابك
ملء أوفاضك الجلال فرحى بالجلال الفيض من أنسابك
حضنتك الأملاك فى جنة الخلد ورفت على وضىء عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضراً وأصفت ثيابها رحابك

إلى أن قال واصفاً مسير المياه .

يتوثبن فى الضفاف خفافاً ثم يركضن فى ممر شعابك
عجباً أنت ساعداً بمراقيك لعمرى أو هابطاً فى انصبابك

اختار الشاعر النابغة أحسن الألفاظ وقعاً فى النفس وإثارة للعواطف ، مما يناسب المعنى الذى تصدى لتوضيحه وبيانه . ألا تسمع إلى هذه الكلمات — نبيل موفق فى مسابك ، ثم الفيض من أنسابك — ثم إلى يتوثبن — ثم إلى كلمتى خفافاً «ويركضن». إنها ألفاظ تدعو إلى الفكر كل المعانى الجميلة التى تدانيه أو تمت إليه بسبب . فكلمة يتوثبن ترسم للذهن فى أوضح صورة منظر الماء المنساب فوق الضفاف فى سرعة وقوة حيث يمر سطح الأرض ويفيض على روابيها العالية ، ثم ينحسر عنها جارياً إلى المنخفضات والوديان ، وهذا يتمثل فى عبارة « يركضن فى ممر شعابك » فى قوة ووضوح . وكلمة أجنحة خضراً تدعو إلى ذهن السامع كل المعانى الجميلة التى تلابسها ، فيستعرض الذهن منظر الخضرة اليانعة والظل الوارف ، والطير الصادح ، وكل ما هو جميل مؤثر .

تصوير المرئيات والمناظر الطبيعية :

يقل فى شعر هذين الفلقين وصف المرئيات — أو بعبارة أخرى رسم الصور لما يريان من الأشياء . بينما يزخر شعرهما بنفثات الصدور وخلجات النفوس ، ومظاهر تأثيرهما بالأحداث والنكبات ، واستهجانهما للتقاليد والعادات وتصويرهما الحقائق التى امتزج بها الخيال ولونتها العاطفة . ولكل هذه الموضوعات أثر فى نفسيهما الثائرتين ، حيث يشتد الألم البالغ ويطغى الهيجان الفوار ويغلى الدم الحار ، فتنطلق من الشفاه ، همسة محزونة أو صرخة مدوية أو نغمة قوية تذهب فى الناس مثلا سائراً وقولا مأثوراً أبقى على الزمن من الزمن .

افتن شاعرنا التجانى بمنظر الطبيعة الساحرة لما رأى جزيرة (توتى) تستيقظ فى غلس الليل الدامر وتستقبل الصبح السافر كأنها روضة مفتنة حفها النيل واحتواها البر ففاح شذى زهورها وشدت على الأغصان طيورها، فطرب الشاعر وسكر، وعبر عن هذا الإحساس بلغة خيالها قوى ونغمها شجى، ومعانيها ساحرة. استمع إليه يقول: —

يادرة حفها النيل واحتواها البر
ضحا الدجى وتغشاك فى الأسرة فجر
كم ذا تمازج فن على يديك وسحر
يخور ثور وتثغو شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزرع مونق مخضر

إلى أن قال: —

وذاب فى الرمل أوماج فى الترائب تبر
هذا شراع مكر، وذا شراع مفر
يطوى وينشر والريح من هناك تسر
وزورق يتهادى وزورق يستحر
يرسى ويقلع والشاطى هادى مستقر
ورب قنواء للعصم والأنوق مقر
أوفى على النيل فرع منها وأشرف جزر

أتريد بعد هذا البيان بياناً يصور فيه الشاعر العبقرى منظر الطبيعة الساحرة ويعطى صورة كاملة العناصر موصولة الأواصر تنتقل فيها من خاطر إلى خاطر حتى تستوعب كل المعانى التى تكمل بها الصورة للناظر فى أبيات هى السحر الساحر. ولقد أبدع التجانى أيما إبداع فى رسم صورته؛ وفاق فيها المصور الماهر الذى يعمل فى دائرة ضيقة حينما يرسم على لوحته حالة من حالات النفس أو صورة من صور الحس. على حين أن دائرة التجانى أرحب وأوسع، لأنه يستكمل تصوير منظره فى أبيات متعددة إن عجز عن تعبيرها فى بيت أو بيتين.

ولنستمع الآن إلى قصيدة مشابهة من قصائد الشابى التى يصور فيها صورة واضحة لما يحس من أشعة الوجود وألوان الطبيعة وعبر الحياة. يقول مخاطباً الحياة التى يريدها لشعبه فى قصيدته (إرادة الحياة): —

وقال لى الغاب فى رقة محببة مثل خفق الوتر
يحل الشتاء: شتاء الضياء، شتاء الثلوج، شتاء المطر
فينطق السحر: سحر العيون، وسحر الثمار، وسحر الزهر
وتهوى الغصون وأوراقها وأزهارها عن جمال نضر
وتلهو بها الريح فى كل واد ويدفنها السيل أنى عبر

لقد نقلك الشاعر الساحر إلى جو عبق زاهر فيه تحب الحياة ويحلو المتاع ويطيب النعيم. كيف يكون ذلك وهو يصف ذبولها ومحولها؟ إنه يعطيك صور الحياة الممتعة بعرض صورها القاتمة ويصدها تتميز الأشياء. ويصور لك ما يغشاه من طلام الشتاء، وانطفاء السحر والرواء، حينما تذوى الثمار وتذبل الأزهار، وينيب النوار، وتسقط أوراق الأشجار التى تلعب بها التكباء فى زمهرير الشتاء، ويدفنها السيل الدافق فى أغوار المهاد والوهاد.

هذه صورة جميلة عبر بها الشاعر عن إحساسات قوية وتأثرات عميقة رسمها باستخدام ألفاظ منتقاة مرتبة فى أعذب ألحان، وأجل موسيقى، وأقوى أشجان.

(البقية فى العدد القادم)

أبو القاسم محمد بدرى
مدرس بالمدرسة الثانوية بأم درمان (السودان)

مجلس بلدى دمنهور
السكرتارية
إعلان

تطرح بلدية دمنهور فى المزاد بيع ٦٥٠ متر مكعب سماد بودريت ناتج من مزرعة المجارى تحت العجز والزيادة فمن كانت له رغبة فى الدخول فى هذا المزاد عليه الحضور لديوان البلدية فى الساعة العاشرة الأفرنكية من صباح يوم الإثنين الموافق أول يوليو سنة ١٩٤٦.»

٥٥٢٢